الحديث ذو شجون

للدكتور زكى مبارك

إليك أعتذر ، أيها الغزالى ، فما كنت أحسب أن السياسة ستجنى علينا كما جنت عليك — حصار مزعج ! — اللهم اجعل هيكل باشا هو الدكتور هيكل — عواطف نبيلة من شعب نبيل

إليك أعتذر ، أيها الغزالى !

فى سنة ١٩٢٢ كنت أقضى أكثر الوقت فى تحرير كتاب « الأخلاق عند الغزالى » وكان ذلك فى أعقاب أعوام شداد واجهتُ بها نار الثورة المصرية ، واكتوت يدى بلهب الجدل والصيال حول المطالب الوطنية ، فأثر ذلك فى عقلى وتفكيرى إلى أبعد الحدود ، وحملنى ذلك التأثير على السخرية من اعتزال الغزالى المجتمع السياسى وابتعاده من الضجيج الذى كانت تثيره الحروب الصليبية فى ذلك الحين

ثم مرَّت أعوامٌ راضنى فيها الدهر بعد الجموح ، فعرفتُ أن الغزالى لم يكن من الجبناء ، وإنما كان من الحكماء

وهل أخطأ ابن خلدون حين نهى العلماء عن الاشتغال بالسياسة ؟ وهل أخطأ محمد عبده حين استعاذ بالله من مادة : ساس يسوس ؟

دلونى على رجل واحد غمس يده فى السياسة ثم سلم من الأقاويل والأراجيف ؟

لا بأس من تجريح الرجل الآثم ، ولكنى أستطيع أن أذكر عدداً من الرجال أهينوا فى السياسة بغير حق . وأعجب من ذلك أن أستطيع الإشارة إلى عدد من الرجال أُهينوا بسبب الانسحاب من ميدان السياسة ، فهى عقربٌ تلسع بلا تمييز بين الغوىّ والرشيد

إن أقطاب السياسة فى مصر هم عيون الأمة من الوجهة القومية ، وهم أيضاً من الأقطاب فى ميادين العلم والأدب والذكاء ، ولكن ما نصيب الأديب من الاستفادة بعقول هؤلاء الزعماء ؟

الرِّيبة تلاحقك إن فكرت فى زيارة هذا الزعيم أو ذاك ، والشبهات تحيط بك إن رأيت أن تزوِّد عقلك بمعرفة أهل زمانك فتزور الأندية السياسية من وقت إلى وقت ، وسمعتُك غرضٌ رجيم لأهل الظنون إن طاب لك أن تحفظ الأدب مع أقطاب عصرك فتؤدى واجب التهنئة أو واجب العزاء فى بعض الظروف

لك أن تجالس الفارغين من أحلاس القهوات ، وليس لك أن تظفر بمجالسة رجل كبير له منزلة سياسية ، فإن فعلت فأنت وصولىٌّ ينتظر الجزاء القريب أو البعيد

أليس هذا هو الواقع فى هذه البلاد ؟

بأى حق يُحرم الأديب فى مصر من التعرف الصحيح إلى من يسيطرون على السياسة المصرية ؟

وعمن يأخذ معانى التفكير فى مصاير الأمور الوطنية إذا حُرم التزوّد بأفكار أولئك الرجال ؟

لو اتصل أدباؤنا بالزعماء لوجدوا لأدبهم آفاقاً أوسع من الآفاق التى يعرفون ، الآفاق المحدودة التى لا تُمتِع غير البصر الكليل ، الآفاق المزدحمة بأهل العقم والنضوب من الأشباح التى تغدو وتروح وليس لها زاد غير مضغ الحديث المعاد من فُتات الزور والبهتان

كيف يجوز لأديب أن يقول إنه عاش فى هذا العصر مع أنه لم يعرف أحداً من أمثال مصطفى النحاس ومحمد محمود وعلى ماهر وحلمى عيسى وعلى الشمسى وعبد الفتاح يحيى ومحمود النقراشى ومحمد هيكل ومصطفى عبد الرازق وحسن صبرى وعبد الرحمن عزام وحافظ رمضان ولطفى السيد وأحمد ماهر ومكرم عبيد وصبرى أبو علم ونجيب الهلالى ومحمود بسيونى ، ومن إلى هؤلاء من الوزراء والنواب والشيوخ ، فإنما نريد التمثيل لا الاستقصاء ؟

الأديب الذى لا يعرف أمثال هؤلاء معرفة صحيحة ليس بأهل لمعرفة روح العصر الذى يعيش فيه ، وهو أيضاً أكذب الكاذبين حين يدّعى أنه أثّر فى عصره تأثيراً قوياً أو ضعيفاً ، فما يمكن لأديب أن يكون من أصحاب السُّلطة الأدبية إلا حين يستطيع بلسانه أو بقلمه أن يوجه المسيطرين على مصاير البلاد إلى غاية سامية أو مطلب شريف

ثم ماذا ؟

ثم تقع البشاعة التى نشهد آثارها فى كثير من الأحايين

فالزعماء ناس كسائر الناس ، وعندهم أوقات يزجونها بالسمر والحديث ، فماذا يصنعون وقد غاب عن ناديهم كبار الأدباء ؟

يلتفتون فيرون أنديتهم قد اكتظت بأهل اللغو والفضول من الذين يؤذيهم أن يكون لرجل من أهل الأدب أديم صحيح ،

وعندئذ يصح عند الزعماء أن دنيا الأدب دنيا حقد وغيظ وليس فيها مجال للفكر الثاقب والرأي الرشيد، فيكتفون بالزاد الخبيث الذي يقدمه إليهم الأفاكون من أشباه الأدباء. قاتلهم الله أنى يؤفكون!

سعد زغلول أعز أدب مصطفى المنفلوطي
وعبد الخالق ثروت أعز أدب طه حسين
ومحمد عبده أعز أدب حافظ ابراهيم

فهل تعرفون بعد هذه الأسماء أن زعيما مصرياً عاون على خلق الفرص لأديب جديد؟

وكيف نصل إلى التعاون المنشود والبواعث تقوم من الجانبين؟ فالأدباء ينفرون من الاتصال برجال السياسة خوفاً من تهمة الوصولية

والساسة لا يعرفون من الأدب إلا أنه وسيلة للدعايات الحزبية

وبين خوف أولئك وغرض هؤلاء تضيع الفرص على الأدب الصحيح الذي يمثل ما في المجتمع من آراء وأهواء، وحقائق وأباطيل.

أما بعد فالأدب في خطر، لأن أصحابه في عزلة عن الساسة، والساسة يملكون أكثر الوسائل في توجيه المجتمع، لأن الحاكم يملك في اليوم الواحد ما لا يملك الأديب في الأعوام الطوال

فإن كنتم في ريب مما أقول فتذكروا حوادث التاريخ، فقد كان الناس منذ أقدم العصور يعرفون أن الأدب لا بد له من سناد ليؤدي واجبه على الوجه الصحيح، وسناد الأدب هو الدولة، والدولة هي الساسة الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأحسن القول هو التوجيه الذي يصدر عن كبار الأدباء

أليس من العجب أن يكون قدماء اليونان أعقل منا وبيننا وبينهم أجيال وأجيال؟

ومن أجل هذا كان الأدب اليوناني القديم غنياً بالحديث عن سياسة الأمم والشعوب، وكذلك كان الأدب العربي في العصور التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية، فلما خمدت جذوة العرب تخاذل الأدب وترك الحديث عن السياسة العالية ليتحدث عن المنافسة بين الربيع والخريف، وليكثر القول في الألغاز وخصائص الأيام والأسابيع

أين ما دعوت إليه ألف مرة من خلق الصلات الروحية والذوقية والقومية بين الساسة والأدباء؟

إن طالت هذه الجفوة بين هاتين الطائفتين فسيكون مصير الأدب من أقبح المصاير، فسيحتضر وهو راغم في الحديث عن مشكلات الحاجة خدوجة والمعلم مشحوت!

وأين الأديب الذي قضى سهرته في منزل سعد زغلول ليلة الحادث الذي خرج به الجيش المصري من السودان ليخلق منه قصة أروع من قصة الزوج الذي خانته زوجته الحسناء؟!

وأين الأديب الذي قضى سهرته في منزل علي ماهر في الليلة التي مات فيها جلالة الملك فؤاد ليصور عواطف الوزراء في تقلقلات التاريخ؟

وأين؟ وأين؟

تلك أيام خلت، فليستعد الأدباء لفهم هذا القول، فقد ينفعهم في الأيام المقبلات

حصار مزعج

ويمكن بعد هذا أن ندرك بوضوح أن الأدباء يعانون ضرباً من الحصار المزعج، فهم بعيدون عن الأوساط السياسية خوفاً من تهمة الوصولية، وهم بعيدون من الأجواء الشعبية خوفاً من تهمة الإسفاف، وهم بعيدون من الأوساط الفنية خوفاً من تهمة النزق والطيش، فقد شاع صدقاً أو كذباً أن الفنانين لهم بدوات تخرج عن الوقار في بعض الأحيان

نحن إذاً في حصار. ومع ذلك يطلب منا أن نصف جميع طبقات المجتمع، وأن يكون أدبنا صورة صحيحة لما يثور في ضمير المجتمع من عواطف وآمال

وأنا أشهد على نفسي بالمرض من هذه الناحية، فأنا أجانب رجال السياسة مجانبة مقصودة، لأني أتوهم أن اتصالي برجال السياسة قد يصورني أمام الجمهور بصورة من يطلب الصيد. وقد حاولت إبراء نفسي من هذا المرض فلم أفلح، وكان من آثار هذه العلة أن تمضي الأعوام ولا أنتفع بمحادثة زعيم أنقل عنه وينقل عني، فمعدنا بالتأكيد آراء وأفكار قد تنفع الزعماء بعض النفع، وقد توجههم إلى التعصب للأدب الرفيع، وهو في حاجة إلى عصبية قوية ترفع ما يعترض طريقه من عقبات وأشواك

وقد أزعجت قراء الرسالة مرات كثيرة باقتراح لم أجد من

يصغى إليه ، وهو أن يكون الأدباء مكان فى الحفلات الرسمية ، فجميع الطوائف تمر فى خواطر رجال الدولة عند المناسبات الخطيرة ولا ينسى غير الأدباء وإلا فأين الأديب الذى دعى بصفته الأدبية إلى حضور إحدى الحفلات فى قصر عابدين أو قصر الزعفران ؟

ويزيد الحرج حين يكون الأديب موظفاً ، فهو لا يدعى لأية حفلة رسمية إلا حين يصل إلى درجة مالية تضيفه إلى طبقات الأعيان ، والعياذ بالذوق !

والدرجات المالية للموظفين هى الميزان فى كثير من الشئون ، ولا سيما شئون التشريف . ويكاد يكون من المستحيل أن يمرّ الموظف فى خاطر أية جهة رسمية إلا بعد أن يصل مرتبه إلى كيت وكيت ، ولو كان من أقطاب الأدب والبيان

وكان المأمول أن يعتدل الميزان فى وزارة مثل وزارة المعارف وقد تولى شؤونها وزراء من رجال الأدب أمثال : محمد على علوبة ، ومحمود فهمى النقراشى ، ومحمد حسين هيكل . ولكن الأمور ظلت تسير فى طريقها القديم ، فلم يستفد الأدب شيئاً من الوزراء الأدباء ، وإن كنت أذكر بالخير الكثير أن بعض هؤلاء رادى منزلتى الأدبية فتناسى أنى تطاولت عليه فى إحدى المجلات !

قد يقال : إن الدولة تفتح باباً من الشر حين تفكر فى الاعتراف الرسمى بالقيمة الأدبية ، فكل إنسان يدّعى أنه أديب ، وأن له حقاً فى حضور الحفلات الرسمية !

وأجيب بأن الأدب لم يعد فوضى كما كان فى الأزمان الخوالى ، فالجمهور يكاد يتفق على الإعجاب بأفراد معدودين هم عنده الطبقة الأولى من الأدباء ، وهو كذلك يعرف من هم رجال الطبقة الثانية ومن هم رجال الطبقة الثالثة ، فما الذى يمنع من أن يكون فى ذهن الدولة صورة لأدباء الطبقة الأولى لتفكر فى دعوتهم إلى الحفلات الرسمية ، كما تفكر فى دعوة من يمثلون بعض الجوانب من حياة المجتمع ؟

أليس من العجيب أن يشهد الحفلات الرسمية بعض المجهولين من موظفى السفارات والقنصليات ، ثم يُحرَم رجال الأقلام من شهود تلك الحفلات ، ولهم فيها زادٌ نفيس هو تذوُّق ما فى المجتمع العالى من دقائق تعود على القلم بأجزل النفع ؟

إن وزير المعارف اليوم هو صاحب المعالى محمد حسين هيكل باشا ، وقد سألت عنه زملائى بالمعارف فأكدوا لى أنه الدكتور هيكل ، الأديب المشهور الذى كان يحامى عن الأدب وأهله فى جريدة السياسة ، وأجمعوا على أنه هو بعينه صاحب كتاب « ثورة الأدب »

والحق أن وزيرنا الجديد فيه مَشابه من الدكتور هيكل ، وإن كنت أخشى ألا يكون إياه ، فمن واجبى نحو الأدب الذى أتشرف بالانتساب إليه أن أطلب من الوزير الذى يُشبه الدكتور هيكل أن يتفضل فيخص الأدب بنظرة من نظراته الثواقب ، ونحن بكل تواضع نقترح أن يكون لكبار الأدباء بعض ما لكبار العلماء من منازل التشريف . فإن كان العلماء — وهم اصطلاحاً رجال الدين — أولى منا بالرعاية لأنهم من أهل الآخرة ، فنحن أحق بالعطف العاجل لئلا يُكتب علينا الحرمان فى الدارين !

وليكن مفهوماً جداً أنى أقول هذا الكلام وأنا أتوهم أن هيكل باشا هو الدكتور هيكل ، فإن ثبت أن زملائى بوزارة المعارف خدعونى وأن هيكل باشا شخص غير الدكتور هيكل ، فأنا أعتذر لمعالى الوزير عن هذه الكلمات الجافية ، وأرجوه أن يثق بأنى برىء من الأدب والأدباء !

لو صح أن هيكل باشا هو الدكتور هيكل لكانت فرصة ذهبية لنصرة الأدب الرفيع ، فقد تغريه بالوعود فنزعم أن أهل الأدب يحفظون الجميل ، وأنهم لن ينسوا فضله فى إعزاز الشخصية الأدبية بالديار المصرية

اللهم اجعل هيكل باشا هو الدكتور هيكل !

عواطف نبيلة من شعب نبيل

فى صباح اليوم السادس عشر من حُزَيران تلقيت إشارة تليفونية من وزارة الخارجية المصرية تسألنى عن اسمى الكامل وعن منصبى بوزارة المعارف ، وأردت أن أعرف الموجب لهذه الأسئلة المفاجئة ، فقيل : إن أجوبتها ستقدَّم إلى قصر جلالة الملك تمهيداً لوسام سأتلقاه من حكومة العراق

وفى صباح اليوم الخامس عشر من تموز تلقيت برقية من الصديق الكريم السيد عبد القادر أحمد الموظف بمديرية الدعاية فى بغداد يهنئنى بوسام الرافدين

ومعنى تلك الإشارة وهذه البرقية أننى خطرت فى بال أهل الصدق والوفاء من أقطاب بغداد